From: "arabistan" <arabistan@arabistan.org> View Contact Details

To: "Arabistan,Ahwaz Online Network" <arabistan@yahoo.com>

Subject: من أزقة العمائم ... الأهواز ... و صفوية أخرى

Date: Wed, 15 Sep 2004 13:57:27 +0200

من أزقة العمائم
الأهواز.. وصفوية أخرى

موقع عربستان ـ عبد الرزاق الجبران

من بدّل للناس وجوهاً والسنة إيرانية ؟

مظفر النواب

مازالت الطرق صعبة إلى إيران... كنت اقتدح هذه العبارة في جوار كل أزمة مع هذا الإقليم، حتى غدت لدي أشبه بمثل احتدم على ضفاف الجيل الذي انتمي إليه... سبكت حروفه وجروحه ثلاثية السياسة والدين.. وأحيانا الحب – بعيداً عن الأروقة الثلاثة المعتمدة مع الرواية التجارية، أو الأيدلوجية، الأولوية تحددها انثربولوجيا المفاهيم الثلاثة السابقة، ريادةً لكل شرط وجودي، انتكاساً وانتشاءً – مثلٌ له عمر طويل، اخدع نفسي بأنه نزّ عن قلمي في لحظة ارتداد ألذات إلى وعيها، إذ يغدو الارتداد
(هذا المفهوم الجانح) سموا، إذا ما كان إزاء ارتداد ونهاية أيدلوجية ما.

ارتداد إلى حائط ملامحه وأخاديده تحاول أن تتنازل عن مسلمات انبجست في صبانا مع النشوة الأولى للثورة الدينية في إيران، سيما أن ذاك حدث للنفس في زمن أكاد لا أجد حينها في الناس إلا كلمة (سيد قطب) الآخذة به إلى رؤيته في التكفير؛ بأن المجتمعات وحكوماتها خرجت على إرادة الرب.

جاء بي إلى هذا الطريق ثانية غير ما جاء بي أول الروح؛ في الأولى ثائراً يبحث عن وجع صوفي، وغدوة خمينية يتنفس بها ضحى التضحية. شابا ملء روحه الدين – وان صدقت عبارة؛ ملء دينه الروح .. فهي اقرب إلى قلمي سيمولوجيا - وملء بصره العمائم ورائحتها الكافورية

المخادع بها للناس، حتى إذا تسفّر الليل كانت رائحتها الخمرية.. تلك التي أزكمت انفي في ما بعد لأهرب بجلدي عن الحدود دون أوراق.
الغريب إني دائما اعبر الحدود دون أوراق وكأن القدر – بل بدأت أعيش حدسية ذلك – أراد لي؛ أنا من لا املك إلا الأوراق دائما، وهي منحتي الوحيدة للناس أن افتقدها عند أبواب الحكومات، ولا بأس فمع هذا السطر اهدأ مع ذاتي واثقا بها – كما هدأ علي ألشريعتي حين تكفيره سنة وشيعة – في هذه الأزائية بين الحكومات والناس مع ذاتي، أستطيع أن انحت عنها مقولة قد تصل بها إلى التقعيد تجدي كثيرا مع حفاة الأرصفة والأرغفة؛ (ثق بنفسك حين تمنح الناس ما تسلبك الحكومات).

لن ادخل في خصوص مجيئي الثاني لأسباب تلح وجوديتي أن ارسمها لوحة تأبى إلا ان تكون عنواناً لأحد روايات عبد الرحمن منيف في وجعه الشرقي، وأتمنى أن لا يفاجئني قلمي بحروفها، إذ مشكلتي أني لا امسح ما يخطه قلمي، وهذا عهد له منذ أن ولدت معه يوم الميثاق، ففي عقيدتي إن ما يكتبه هو ما يذبحه في هيكل الروح ولا يعاد القربان كما نعرف سيما مع الآلهة.

***

دخلت أول مرة إلى إيران وأنا انتظر ديناً خلته خلاصا للناس والأرض، بملائكة مازالوا يرتادون الأرض بوحي ضاع منّا نبيه، ولكني وعيت بعد حين أن النبي ضاعت ملائكته.

دخلت لا احمل إلا ثقافة أكاديمية ألجأني إليها أبي قسرا، ومنظومة حكمية أدبية كنت غارقا فيها، تقود دفتها - تلك التي أنقذتني بعد حين - وجهه انطولوجية لا شعورية تشاغفت بها الروح قبل أن ادخل إلى كل تلك الدوغمائيات البغيضة المستلبة لوعيي ووجودي، وصيرورتي للناس.

من أول يوم، بدأت ادخل زقاقا بعد زقاق من أزقة العمائم، كأني ادخل أزقة عربدة - إذ لا يدخل الأزقة إلا من يهوى الأوساخ - نالت من ارث الثورة في ذاكرتي البريئة... وهكذا توالت إلى أن بدأت اطلب خلاص ذاتي بعد أن كنت اطلب خلاص الناس. أعانني على ذالك تجربتي المتأزمة وجوديا معهم، لتفضي بي كل مرة بقراءة جديدة للدين، ورجل الدين..... وهكذا بدا لي ايبستمولوجيا أن التجربة الشعورية للإنسان - كما عرفتها منهجا بعد ذلك مع علي شريعتي والبعض القليل من الإسلاميين والوجوديين - تتجاوز التجربة المعرفية في التحولات الأيديولوجية لدى ألذات (انقلاباتها وتحولاتها) لتحكمها المناطق الوجدانية دون العقلية، وبالتالي يتأكد لدي هنا وجه آخر من الحدس الوجداني لماكس شيلر، وأتنفس صدقه وسط الخصام الدائر بين الذاتيين والعقليين.

لن أطيل في درب الحفاة للأيام الخوالي، وإلا فالذات دائما تجر خطاها إلى صحاري رحيلها الأول، وتتيه عن قافلة يومها.

من ضمن ما استجد لي بعد وعيي لكثير من الزيف الديني على حساب الإسلام في عموم العالم الإسلامي، هي قضية الأهواز، بعد أن تمنى علينا مسؤولون في السفارة الإيرانية في سوريا، مقاطعة مثقف اهوازي كان صديق لي، وهكذا للأسف تراكظت العمائم على مقاطعته خوفا على دكاكينها.

وقتها ليس بي إلا جراحات خاصة من إيران في خصوص إخوتي اللاجئين هناك أما الأهواز فلا وجع معي إلا نخيلات عربية يرضعن منها بنات فارس ويلعننا مع قذف نواها، إن لم يرمين بها على جدائل صِبية عربية.. والمشكلة؛ أن الدم العربي مازال يجف دون كل الدماء، على أطراف جباهنا، كرما واستنكافا أن ينزل على تراب مازال مستلبا، في لحظات المحنة.. وان تلبسنا بالعار ملء العار يوم استبدلنا خيامنا بقصور بغداد.

بدأت اعي الموضوع برواية من المثقف الأهوازي - كان مما يبرر بها أمامي اتخاذه هذا الطريق – عما حدث مع أخيه وقتذاك حين رزق بطفلة منعت السلطات الإيرانية أن يكون اسمها عربيا، وعلى قوله؛ قس على هذا.

وهكذا شغلني الواجب كمثقف ديني وحساسيتي تجاه هكذا أمور أن اعرف أشياء أخرى وان أجد لمكنستي وسخ من أوساخ تلك الأزقة، إلى أن جمعتني الصدفة بطالب اهوازي في جامعة دمشق غدا تلميذا لي بعد ذلك، واقرب ما يكون إلى نفسي، وتبدّى لي مع هذه الصدفة الأمر بوضوح أكثر وبجرح وجودي أكثر إيغالاً في نفسي اتجاه هذه الأزمة، بما كان من تصرفات السفارة الإيرانية معه بمضايقات بدل أن تكون معها السفارة خادمة لرعاياها كانت ما لا أستطيع أن أصفه من تلك الاختناقات التي عشتها في اضطهاد صديقي الأهوازي. والذي لا يحمل ذنبا إلا كونه عربيا، فليعون أنهم يذنبون الله بذلك تعالى عما يبطنون .

مضايقات شتى مورست على إنسان بريء، بعيد كل البعد عن السياسة، حتى أني لطالما اردد أمامه واصفا إياه بالحمار وهو يبتسم تلك الابتسامة الخجلة الخائفة. فمع كل سوط يوجه له، يأخذ خطوة عبودية أخرى، تمارس عليه باسم الله، (استحمارا)، لم يجد الإصلاحي الشهير الدكتور

علي ألشريعتي جهة تمارسه (= الأستحمار) مع الإنسان كما يمارسه رجال الدين.

مضايقات منعني الأهوازي البريء أن أكون مسلما عربيا احمل بعض فروسيتي إلى قاعة السفير، خوفا على إخوته داخل إيران.

صبّرت نفسي بوعد ليوم، تظهر فيه بعض تلك الفروسية وألا فالمثقف الديني دون أن يعي صهوة قلمه، يسقط تحت حوافر التأريخ. كما الجاني ذلك إلى قراءة التاريخ بوجع شعوبي كما ناب بها عنا الإسلامي الحر هاني فحص.

وهكذا اشتد لدي الأمر، سيما أن قضيتي الأساس ثقافيا هي التجديد الديني، وتخليص إبريز الدين من رجال الدين، فكانت قضية الأهواز مثالا بارزا أمامي على انتكاسة التيار التقليدي، سيما في مسالة الحكم وخطورتها، كمحور وجودي في صيرورة الإنسان نحو الله كغاية خلقية.

***

حتى وان ناقشت مسألة الأهواز على نحو مفهوم الأقلية بعيدا عن الاحتلال والاغتصاب، فالأمر يبقى خُلفا دينيا فاقعا، سيما أن شيء من الطريقة الإسرائيلية بنكتتها التاريخية التقليدية في حق فلسطين تمارس هناك.

بعيدا عن تلميذي الأهوازي وعن الأمي كمثقف مسئول، وعن عروبتي، فهويتي هي الإسلام.. أريد أن أبقى في حدود مجالي المعرفي وأهدافي التجديدية للدين وخصامي ومعاركي مع التيار الانتكاسي، والتمييز بين شريعة البشر وقانون الله، بين دين الفقهاء والتجار و الإقطاعيين والسلاطين، وبين دين الله والمستضعفين.

إذ لم أجد خروجا فاقعا على الإسلام، كما هو ممارس مع شعب الأهواز، استبدادا واستلابا واضطهادا وظلما.

كان حسن حنفي قبل شهرين تقريبا طرح على الصفحات الإلكترونية للشرق الوسط، مقال بخصوص الأقليات، أُخذ كحلقة نقاش؛ اصّل حنفي للمسالة فيها بمنهج فينومينولوجي معتاد، يخال البعض أن الرصانة المعتمدة في البحوث التأصيلية من الناحية المرجعية على الوجه التقليدي سيما مع منظومة المسلمات المنهجية، كان قد افتقد إليها المقال. بينما يجد الواقف على نهاية

المقال وحيا وجدانيا يفهم بها أن حنفي كما افهمه كان متعمد الابتعاد عن ذلك لاقتناعه بمنهج وأسلوب يفرضان نوع من الخطاب ألبرهاني يتجاوز الحبكة التجريدية التي تدوم مع الشكل المنطقي على حساب المضمون .

لا يمكنني تجاوزا على أوراق الأهواز أن اذهب مع جدوى المنهج الشخصي لحسن حنفي في توظيف معارفه في الوجود المشخص بين الناس كمنهج اعتاده في صياغة المعرفة عند أعتاب المستضعفين والذي أسير عليه ميثاقا مع ثلاثية المثقف النبوي لعلي شريعتي في؛ (الأيمان، التضحية، المسؤولية) وهذا ما دفعني لهذا المقال كي اشعر بأني باق على هذا الخط، أما إذا رأوا في كلمات شريعتي أنها شيطانية فلا عجب في ذلك فلقد حوروا كلمات القرآن قبلها.

كانت قناعتي قبل عدة أعوام، كإسلامي ابحث عن دين الله متخليا عن دين العمائم، بأن وجه الإشكالية الإصلاحية لا يمكن أن تحل طالما الأسس والمسلمات هي هي, كذلك عدم الوقوف على فلسفة الدين - بعيدا عن الادعاءات المنهجية معها والتي نجدها أحيانا موغلة في السلفية - كخلاص معرفي؛ لا يمكن للعقل والوجدان المكوَّن إنقاذ نفسه دون التخلي عن المكوِّن مضاهاة لفكرة التخلي والتحلي والتجلي في التيار الصوفي.. هذا من جهة، والجهة الثانية كأزمة هي رجل الدين، مع أن الطريق للإصلاح يبدأ من الأول لإشكالية سيكولوجية مع رجل الدين. ولأيماني بقناعة شريعتي بمقولة: لا تسلبوا رجال الدين من الناس، وإنما اسلبوا الناس من رجال الدين. أي اسكتوا أمامهم وتكلموا مع الناس.

ومع أن الرجوع إلى هذه الأسس التجديدية للفكر الإسلامي، واعتماد نمط الإشكالية سيأخذ بنا إلى وجه بعيد جدا عن النتاج التقليدي، ويكشف أوساخا نتنة تخالف نظافة الإسلام في كل وجوده الإلهي وفاقا على الانطولوجية الدينية التي نعمل عليها... ولكني اكتفي بعين المنتج الفقهي التقليدي، فهو وحسب يكفينا ليخرج من يمارسون الطريقة الإيرانية مع عرب الأهواز من ادعاء الشرعية الإسلامية لسلوكهم هذا - مع احترامي لكثير من الزملاء والمفكرين الإيرانيين الذين لهم خدمات للفكر الإسلامي صعب على غيرهم أن يمر بها تنويرا - كونها تمارس استلابا (للأرض والإنسان) بل واحتقارا وسلبا للشخصية، وطمسا وأنماطا يبرئ منها الإسلام.

ويمكن احتواء المسألة شرعيا، ونزول واقعها المخزي كمصداق مخالف لقمة المقاصد الخمسة الشاطبية المعتمدة من المدرسة الشيعية الأمامية أيضا؛ (الدين، النفس، العقل، العرض، المال) بما يمكن تناول الحالة الأهوازية بها، ووجوه هذه المفاهيم هناك، وانتقائها بأيدي تخرج من ظلام

تلك الأزقة؛ (الدين وحمل الناس به بغضا لا شعورا بهذه الممارسة، النفس مضطهدة، العقل مستلب، الكرامة تنال، خيرات الأرض لغير أهلها)، بمصاديق يطول عرضها، لذا يكفي هنا أن نتجاوز تأكيد التعدي المقصدي، وحالة الخنق لها، من أطراف تمارس الإسلام باسم هذه المقاصد.

ويكفي هنا أيضا تحسس فساد السلوك السلطوي إسلامياً مع الأهواز في بعض لقطات من الواقع البائس، يلمح ظلامته الجمهور العريض، كون حديثنا له، قبل كل جهة.. فالناس هم شاطئي المثقف، متكأين على وحي الحسن والقبح العقليين كقاعدة تأخذ مداها المثمر في شرط الوضوح منهجيا إذا ما طورناها ـ كما نرتئي ـ في كونهما وجدانيين لا يخلو منها فرد، بعيدا من أن يحتكرها فقيه أو فيلسوف لأسس اعمل عليها من فترة ليس مجالها هنا.

***

هكذا عاينت وتأكدت؛

- أن الأهوازي لا يجوز له أن يرتدي زيه العربي.
- ولا يجوز له أن يسمي أولاده بأسماء عربية.
- ولا يجوز أن يشيع لغته في الأماكن العامة، بل لا يجوز أن يتكلم بلغته كما عاينت ذلك.
- لا يوجد هناك مقرر دراسي يتناول اللغة الأم، ولا أي صحيفة باللغة العربية.
- معظم بل جميع المسؤولين الكبار في إقليم الأهواز والماسكين بزمام الأمور من غير العرب.
- النفط والغاز الذي يتمتع به الإقليم دون باقي الأقاليم، لا يشعل قنديلا في كوات قراهم.. إذ مازالت القريةُ قريةً هناك، وتذهب هذه الخيرات لغير أهل هذه الأرض.
- الأهوازي العربي يسمع كل يوم كلمات نابية فجة في حق عروبته وكرامته حتى ان الحجة القديمة، في أن نبي الأعاجم هو نبي عربي ذهبت مع الريح - جاء هذا الوصف في سياق مدحي قرآنيا - وان أمام المذهب لهذا الإقليم وعملاق الإنسانية بجدارة هو عربي.
- في المحاكم، إذا كان خصمك عربي فأنت رابح.
- لا تخشى أن المتفوق الأول دراسيا يفوقك في مراكز الدولة أو في المنح الدراسية.. الأولوية دائما لغير العربي.

لا اعلم هل نحتاج إلى فقيه من فقهاء لتأكيد منافاة هذه الصور السلطوية لمبادىء الإسلام - وإلا لو كان ذلك من الإسلام فأنا أول شخص يعلن براءته عن هذا الدين – فهذا ما أهملته قبل قليل مع المقاصد الخمسة احتكاما، وما يمكن أن امتد معه، ولو بحدود مفهوم الملكية بين (الوجود والحدود), وصور تاريخية، وأسس قرآنية كانت مع حسن حنفي في المقال المنوه عنه سابقا.

ولكني اعتقد أن مسلما بسيطا يفهم دينه من جدته كرحمة ونعمة على العالمين لايمكن أن يرى

في هكذا صورة - مع مجموعة بشرية تريد (اقلها) كرامتها وتاريخها، وليأخذوا ما شاءوا من خبزهم.... كون الأهوازي، لم يئن يوما على نفطه، كل الذين التقيتهم في سفري الثاني إلى الأهواز خصوصا كانوا في أزمة كرامة مع الإيرانيين لا غير - إلا خيانة لمبادىء الدين وقسوة على الوجع الإسلامي في أيامه هذه، أو ما يمكن أن أطلق عليه تسميةً أطلقها معلم لي في خصوص اتجاه من التيار الإسلامي.. اسماها بالقراءة المتوحشة للإسلام، وهو عين ما اسماه علي شريعتي بـ (دين ضد الدين).

لا اعتقد أن ما نزف به قلمي هنا هو استيفاء لحق مثقف له حصة خمس سنوات من مذكراته في إيران، عانى منه وجوده، ولا أنها طرف عقد تجاري يمارسها قلم مأجور مع جهة مستفيدة، فنحن أهل الرصيف والنزيف والرغيف... ما هي إلا ممارسة لفلسفة الموقف التي لا اعرف غيرها كشرط وجودي يعذرني عليها أصحابي، وعيتها من قوانين الله وسننه في مجتمعات التأريخ.

ولأني يوما نسيت قرب الكارون عيوني –كما نساها النواب قبل أربعين عاما- تتعذب ببريق كحل عربي ترسم به شطآنه قافية عربية.... عزَّ علي أن اتركها فتركت عيوني هناك.

علَّ مياه الكارون تقذف بها لصياد تعب مجذافه في شط العرب... فالأنهار مثلي هي الوحيدة في هذه الأرض التي تجتاز الحدود دون أوراق.